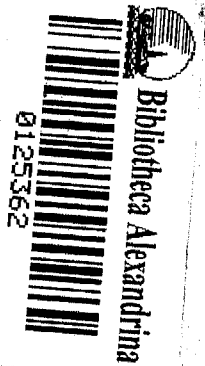


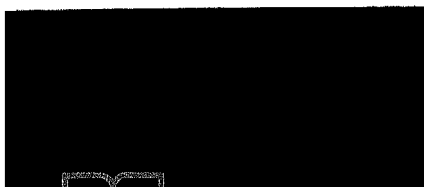
صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك
(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)

دكتور محمد زيان غسانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٧٨



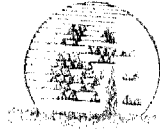


صفحة من تاريخ الخلافة العباسية
في ظل دولة المهاليك



١٦٦٩
١٦٦٩
١٦٦٩

صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك
(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)



دكتور محمد زيان خفانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

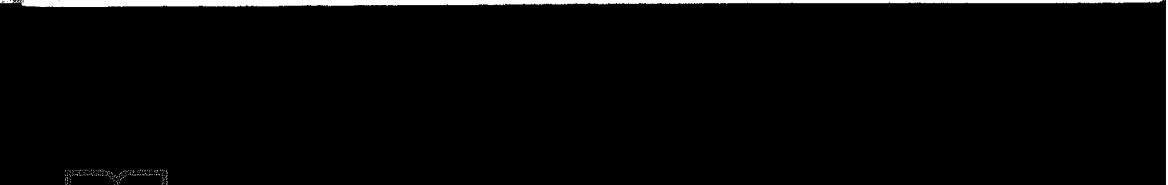
8179

١٩٧٨

الهيئة العامة لكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 962.02
رقم التسجيل : ١٦١٨

دار الثقافة والنشر
والتأليف
والتوزيع

[Faint, illegible text covering the majority of the page, possibly bleed-through from the reverse side.]



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حفل عصر سلاطين المماليك بخلاف ألوان النشاط السياسي، وإستخدام المماليك سواء كانوا سلاطين أم أمراء أساليب سياسية مختلفة الوصول إلى أهدافهم. وكانت مسألة الخلافة من بين تلك الأساليب التي أجادوا إستخدامها. وإذا كان كثير من الباحثين يركزون على دبلوماسية السلطان الظاهر بهبرس وتفكيره في إنتخاذ الخلافة العباسية — بعد إحيائها في القاهرة — ورقة راجحة لتثبيت دعائم حكمه والضرب بها على أيدي ورقاب الخارجيين عن طاعته، فإن المماليك البرجية كذلك أحسنوا إستخدام هذه اللعبة - الخلافة - في الوصول إلى أهدافهم.

وفي هذه الدراسة حاولت إيضاح دبلوماسية بعض أمراء البرجية وتلاعبهم بالخلافة العباسية للوصول إلى حكم البلاد منتهزين بما يتمتع به الحلفاء العباسيون من مركز قوى في نفوس المسلمين بصفتهم « أمراء

المؤمنين « دون النظر إلى ما يتبع هذا القلاعب من أثر سيء على مركز
الخلافة المباسية نفسها .

وأسأل الله التوفيق .

القاهرة في { ٢١ المحرم ١٣٩٨
{ أول يناير ١٩٧٨

حامد زيان غانم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ



سقوط الخلافة العباسية ببغداد

المعروف أن الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة منذ عام ٨١٣٢ (٧٥٠م) انقسموا إلى قسمين ، قسم أمتاز بالقوة والمهارة في معالجة الأمور ، وهؤلاء هم خلفاء العصر العباس الأول الممتد من عام ٨١٣٢ إلى عام ٨٤٣٢ ، وقسم ثان كان الضعف هو السمة المميزة الغالبة عليه ، وهو ذلك القسم الذي أطلق عليه إسم العصر العباسي الثاني .

وبقدر ما كان لخلفاء العصر العباسي الأول — أمثال أبي العباس السفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم — من قوة ومهابة وعظمة في قلوب المعاصرين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، بقدر ما كان لخلفاء العصر العباسي الثاني من ضعف ومذلة وخنوع لقوة كبار القادة وما أمسوا فيه من مهانة من أمثال المستعين والمعتز والمعتمد والمقتدر وغيرهم .

والواقع أن ما أمسى فيه خلفاء العصر العباسي الثاني من ضعف

ظاهر ، وما صاحبه من تحسّم كبار القادة والوزراء في شخصياتهم أدى إلى زوال تلك الخلافة نهائياً .

وينطبق هذا القول تماماً على ما حدث للخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠ - ٨٦٥) وما آل إليه أمره في النهاية بالقتل على يد القتل وهو خير دليل على ذلك القول . فقد تولى وزارة المستعصم بالله الوزير أبو طالب محمد بن أحمد مؤيد الدين بن العلقمي ، وكان كما ذكر أبو المحاسن رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين (١) .

ويذكر المؤرخون عدة أسباب لحقد ابن العلقمي على الخلافة العباسية نشير إليها فيما يلي :

يرى ابن شاكر السكيتي أن سبب حقد ابن العلقمي على الخلافة العباسية هو أنه وقع بينه وبين الدوادار (٢) خلافاً ، وكان الدوادار سنياً

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ص ٧٧ .
(٢) الدوادار هو الشخص الذي يقوم بحمل دواة السلطان أو الخليفة ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الشكاوى إليه . (المقرئ : الخطط ج ٣ ص ٦٥) .

مقتاليا ، ووقف ابن الخليفة المستعصم بالله في جانب الدوادار ، فأدى هذا هذا الخلاف الذي انقصر فيه الدوادار على ابن العلقمي إلى حقد ابن العلقمي على الدوادار والخلافة العباسية جميعا ، وأدى إلى « سعيه في دمار الاسلام وخراب بغداد » ، وذلك نتيجة ما أصابه من ضعف بينما قوى شأن الدوادار^(١) ويضيف ابن طباطبا سببا آخر في اشتعال نار الحقد في قلب ابن العلقمي وهو أن خواص الخليفة العباسي كرهوا ابن العلقمي وحسدوه ، فوقف ابن العلقمي منهم ومن الخلافة العباسية موقفا معاديا^(٢) ، أما أبو الفدا فيذكر لنا سببا آخر في حقد ابن العلقمي على العباسيين الأوهو : أنه عندما اشتعلت الفتنة بين السنة والشيعة ببغداد ، أمر أبو بكر ابن الخليفة المستعصم بالله وركن الدين الدوادار ، الجند بنهب منازل الشيعة « وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش » فمظم ذلك على ابن العلقمي - وكان شيعيا - « وكتب التتر وأطمعهم في بغداد^(٣) » .

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٨ ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٤٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٣ .

ولم يلبث ابن العلقمي أن كتم حقه هذا في نفسه في حين أظهر للخليفة المستعصم كل حب وود، وأخذ يدبر مؤامرة من أجل الإطاحة بالخلافة العباسية، وساعده في ذلك ضعف الخليفة العباسي المستعصم بالله واستكانته، وبدأ ابن العلقمي في تدبير الفتن بين السنة والشيعة وإشعال نارها ببغداد، حتى كانت حرباً بين الطرفين. وفي نفس الوقت نصح الخليفة المستعصم بضرورة تسريح ما لديه من جنود وتوفير الأموال التي تنفق عليهم وإرسالها إلى هولاءكو، والإكفاء بماضدة القطار ومحالفتهم^(١)، وقد وافقه الخليفة المستعصم على كل هذه الآراء وذلك لأن المستعصم كان كما وصفه المصادر « خليماً من الرأي والتدبير »^(٢).

وفي نفس الوقت كاتب الوزير ابن العلقمي القطار سراً وأرسل إليهم عدة رسل يحثهم فيها على غزو العراق وأخذ بغداد في مقابل أن يكون هو نائبهم في بغداد، فانتهمز القطار هذه الفرصة ووعدوا الوزير ابن العلقمي بما أراد. وقد أحاط ابن العلقمي بحركته هذه بالسرية التامة، كما أنه حجب على الخليفة بحيث جعله لا يعلم شيء عن تحركات القطار. وكان ابن العلقمي يتسلم للكاتبات من كافة الأمراء ويقولى الرد عليها بما يشتهي، لذلك لم تصل إلى أسماع الخليفة المستعصم بالله تحذيرات الأمير لؤلؤ صاحب الموصل،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٤٨.

(٢) أبو الفدا : المختصر، ج ٣ ص ١٩٤ :

وتاج الدين بن صلاح بن صليبا نائب الخليفة بإربل، اللذان أرسلتا كتباً إلى الخليفة يحذرانه فيها من القطار الذين بدأوا في الزحف نحو بغداد، ولكن الخليفة المستعصم كان « لا يتحرك ولا يستيقظ » على قول أبي المحاسن .

وأخيراً عندما تحقق الخليفة المستعصم من زحف القطار نحو بغداد، رأى أن يرسل اليهم رسولا من قبله يمرض عليهم الأموال الكثيرة، كما أرسل مائة رجل من قبله ليكفونوا عيوننا له ترصد تحركات القطار .

غير أن القطار لم يلبثوا أن القوا التبعيض على أولئك الرجال، وواصلوا الزحف نحو العراق . وعندما اقتربوا من بغداد خرج اليهم جيش الخليفة وعلى رأسه ركن الدين الدوادار وكانت الهزيمة من نصيب جيش بغداد، وأخذت سيوفهم، وغرق بعضهم في نهر دجلة، وهرب الباقون (١) .

ثم تقدم هولاء نحو بغداد وضرب عليها الحصار. ويبدو أن الوزير ابن العلقمي أراد أن يمضي في شوط الخيانية إلى آخره، فبدأ من روع الخليفة المستعصم وأشار عليه بمصانعة القطار . وخرج ابن العلقمي بنفسه لمقابلة القطار وتم اتفاقه معهم « وتوثق لنفسه »، ثم رجع إلى الخليفة ليؤممه بأن هولاء كوا يرغب في أن يزوج ابنته من ابن الخليفة، ويبقى الخليفة في منصب الخلافة، على أن تكون السلطة له، كما كان الحال مع أجداد

(١) ابن شاذان الكندي : فوات الوفيات، ج ٢ ص ٣١٣، أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٤٨ - ٤٩ .

الخليفة السابقين وسلاطين السلاجقة . وأشار على الخليفة بتبول هذا المرض حتى يعجنب الحرب مع القطار ، وفي نفس الوقت نصح ابن العلقمي الخليفة المستعصم بالخروج لمقابلة هولاءكو . ولم يسم الخليفة المستعصم إلا أن يسمع نصائح ابن العلقمي دون أن يدري أنه يذهب إلى حقهه بنفسه ، ووافق المستعصم كذلك على كل الاقتراحات السابقة ، وخرج في جمع من أعيانه وأقاربه وحاشيته .

ولم يخرج هولاءكو لاستقبال الخليفة ولم يعتمهم به ولم يرحب بقدمه ، كما كان يتوقع المستعصم ، وإنما أنزله بجيمة أعدت له ، وفرضت عليه الحراسة . وفي نفس الوقت أشار هولاءكو على الوزير ابن العلقمي باحضار فقهاء وأعيان بغداد اليه ، فأرسل اليهم ابن العلقمي يخبرهم بضرورة حضور عقد قران ابن الخليفة ، وبالفعل خرج عدد وافر من فقهاء وعلماء وأعيان بغداد متجهين إلى هولاءكو ، الذي أمر بضرب أعناقهم عندما وصلوا إليه . وهنا بدأت المؤامرة التي دبرها ابن العلقمي وهولاءكو تنكشف ، وتلا ذلك عبور القطار نهر دجلة حيث دخلت جيوشهم ببغداد لتفتك بأهلها دون التفرة بين صبي أو امرأة أو شيخ ، أما من بقي من القتل فقد أسر ، واستمر القتل والنهب والسبي ببغداد قرابة ثمانية وثلاثين يوماً ، وبعدها نودي بالأمان ، بعد أن بلغ عدد القتلى ببغداد حوالي ثمانمائة الف قتيل .

أما الخليفة المستعصم وحاشيته وأهل بيته ، فقد قضى عليهم هولاءكو

جميعها ، وتضاربت الأقوال في كيفية قتل هولاء كوا المستعصم (قتل في ٢٠ محرم عام ٦٥٦ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٨ م) فمنهم من قال انه توفي خنقا ، ومنهم من قل غم في بساط (١) وعلى هذا النحو انتهت الخلافة العباسية ، وصار العالم الاسلامي ولأول مرة بلا خليفة (٢) .

أما ابن العلقمي فتحقق له ما أراد ، حيث انتهى أمر الخلافة العباسية السنية ، ونولى ابن العلقمي حكم بغداد نيابة عن السلطان هولاء كوا ، مكافأة له على خيانتة للخليفة العباسي ١١ .

غير أن ابن طباطبا وهو المؤرخ المتوفى عام ٨٧٠ هـ (١٣٠٩ م) ومعنى ذلك أنه كان معاصرا لأحداث تلك الفترة وشاهد عيانها يرأ ابن العلقمي من تلك القهم التي لصقت به ومدحه مدحا كثيرا ، واستند ابن طباطبا في دفاعه عن ابن العلقمي على ثقة هولاء كوا فيه وتسليم بغداد له عقب قتل الخليفة فيقول ابن طباطبا :

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٤ ،

المقبري : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٩ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٧ ص ٤٧ - ٥٠ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ،

Muir : The Caliphate its rise, decline and fall, p.586.

« فإن السلطان هولاءكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه ، فلو كان قد خامر - أي ابن العلقمي - على الخليفة ، لما وقع الوثوق فيه ^(١) » . غير أن الحجة التي أتى بها ابن طباطبا إنما هي أكبر دليل على خيانتة ، فهي تؤكد لنا حقيقة الاتفاق السابق بين هولاءكو من جهة وابن العلقمي من جهة أخرى .

ويبدو أن يد القدر لم تمهل ابن العلقمي كثيراً ليتمتع بحكم بغداد نيابة عن القطار ، إذ لم لم يلبث أن توفى بعد قليل في جمادى الأولى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وفق رواية ابن طباطبا ^(٢) ، أو في أوائل عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) وفق رواية ابن شاذكر الكتبي ^(٣) « غمّاً وغيظاً » ، وذلك لأنه عومل معاملة سيئة جداً من جانب القطار ^(٤) ، وقد روى ابن شاذكر الكتبي رواية تفيد ما وقع فيه ابن العلقمي من مذلة وهوان فكراًها فيما يلي :

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٩ .

(٣) ابن شاذكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٣ .

(٤) ابن شاذكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٣ ،

ابو المحاسن : النجوم ، ج ٧ ص ٥٠ .

« حكى انه - أي ابن العلقمي - كان جالسا بالديوان ، فدخل عليه بعض القطار ، بمن ليس له وجاهه ، راكبا فرسه ، فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير ، وخاطبه بما أراد ، وبالقرس على البساط ، وأصاب الرشاش ثياب الوزير ، وهو صابر لهذا الهوان ، بظهر قوة النفس ، وأنه بلغ مراده ١١ » .

وعندما أحس بعض أصحاب ابن العلقمي من أهل بغداد ، بما أصابه من مذلة وهوان قالوا له : يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حيه ، وحيث الشيعة ، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقا لا تحصى ، وارتسكبت الفواحش مع نساءهم ، فقال : بسد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك !^(١) .

أما عن شخصية ابن العلقمي هذا فقد ذكر عنه المؤرخون انه كان ليديبا كريما وقورا ، محبا للرياسة ، كثير التجميل ، رئيسا مقمسا بقوانين الرياسة ، خبيرا بأدوات السياسة ، يحب أهل الأدب ويقرب أهل العلم ، وذلك لأنه اشتغل في مستهل حياته بالأدب^(٢) ، كما سمع الحديث^(٣) ،

(١) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات ، ٢٠ ص ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخری ، ص ٢٤٨ ،

(٣) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات ، ٢٠ ص ٣١٤ .

وكان رافضياً خبيثاً^(١). ومن أموره الخبيثة تلك الخيلة التي اتبعها في
فراشة التتار عندما « أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد
عليه بالإبر ، ونفض عليه السكحل وتركه عنده إلى أن طام شعره وغطى
ما كتب ، فجهزه وقال له : إذا وصلت مرهم بعلق رأسك ودعهم يقرأون
ما فيه ، وكان في آخر الكلام « اقطعوا الورقة » فضربت عنقه . وهذا
غاية في المكر والخزي^(٢).

وعلى أية حال فقد انتهت الخلافة العباسية ببغداد نهاية مؤسفة على يد
جغافل التتار وبمساعدة ابن العلقمي ، تلك الخلافة التي استمرت قائمة أكثر
من أربعة قرون ما بين قوة وضعف ، ولكن حتى في أيام ضعفها كان
الخليفة واسمه له وقع كبير في نفوس المسلمين .

الظاهر بيبرس واحياء الخلافة العباسية بالقاهرة :

أحسن السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م)
عقب انفراداً بحكم مصر انه في حاجة إلى تأييد شرعي للملكه خاصة وأن
كثيراً من الأعداء ظلوا متربصين به ، فهؤلاء بقايا ملوك البيت ببلاد الشام
وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، الذي أخذ يعمل من

(١) ابو المحاسن : النجوم ، > ٧ ص ٤٧ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، > ٢ ص ٣١٥ .

أجل انتزاع حكم مصر من يد المماليك ، وما لبث يذكر المماليك بأصلهم
الوضيع وأنهم ما إلا « ممالك قد مسهم الرق » ، ومن جهة أخرى ظل
القنار الذين اتخذوا بغداد مركزاً لهم ، ظلوا مهددين حكم بيبرس في مصر
تهديداً كبيراً ، ومن جهة ثالثة لم يكن للمماليك قوة شرعية يستندون اليها
في حكم البلاد ، لذلك بحثوا عن قوة تجميهم وتمنعهم حكماً شرعياً للبلاد ،
ففكر السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية ، لتكون تلك
القوة التي يستند اليها حكمه في مصر بالإضافة إلى ذلك فجامى حتى الخلافة
لا بد وأن يكون هو صاحب السيادة العليا على ما عداه من ملوك وحكام ،
وهذا ما تمناه بيبرس ، ويعطيه أيضاً الحق في الاشراف على الحرمين
الشريفيين ، بالإضافة إلى مكانة مرموقة في نظر الحكام المسلمين ^(١) . هذه
الأسباب وغيرها هي التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس على الاقدام لإحياء
الخلافة العباسية بالقاهرة ^(٢) .

على أنه من الجدير بالذكر ان السلطان الظاهر بيبرس لم يكن هو
أول من فكر في أن تكون مصر هي مقر الخلافة ، فقد سبقه إلى ذلك
الأمير أحمد بن طولون عندما رحب بالخليفة المعتمد أثناء الخلاف الذي
حدث بين المعتمد وأخيه الموفق طلحه عام ٥٢٦٩ (١١٨٢م) غير أن مشروع

(١) Demombynes : Muslim Institutions, p 111, 112.

(٢) على إبراهيم حسن : دراسات في عصر المماليك البحرية ، ص ٢٢١-٢٢٢

أحمد بن طولون لم يتحقق نتيجة قبض للوفيق على المعتمد والحجر عليه ببغداد. وتجدد أمل حكام مصر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر زمن محمد بن طنبج الأخشيدي عندما تأزم الموقف بين المتقى وبين الحمدانيين والأتراك عام ٨٣٣٣ (٩٤٤ م). كذلك رحب السلطان المظفر قطز بالأمير أبي العباس أحمد وهو أحد أمراء البيت العباس الفارين من وجه القتار عقب موقعة عين جالوت وأشار على أصحابه بأنه « إذا رجعنا إلى مصر أنفذنا إليها لنعيد إن شاء الله^(١) ». كما أنه يقال أن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق رأى هو الآخر ضرورة إحياء الخلافة العباسية بدمشق حتى يتسنى له بسط سلطانه على بقية الممالك الإسلامية^(٢).

غير أن السلطان الظاهر بيبرس كان هو أول من نفذ فكرة إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة تنفيذاً عملياً . فعندما أرسل إليه بعض أمراء بلاد الشام يخبروه بوصول رجلا إلى دمشق يسمى أحمد ابن الامام الظاهر ابن الامام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة ، سارع السلطان

(١) ابن أبي الفضايل : النهج السديد ، ص ٩٣ وعن شخصية أبي العباس أحمد انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) ابن أبي الفضايل . النهج السديد ، ص ٩٢ - ٩٣ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

الظاهر بيبرس بالكتابة إلى هؤلاء الأمراء بضرورة التحفظ على هذا الأمير العباسي وإرساله فوراً صحبة بعض الحرس إلى مصر .

وعندما إقترب الأمير أحمد العباسي من مصر خرج للقائه الظاهر بيبرس بنفسه ومعه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وبعض الأمراء ، كذلك خرج في إستقباله اليهود حاملين القوراه والنصارى حاملين الانجيل وساروا جميعا إلى المطرية لإستقباله . ولم يلبث أن ترحل الظاهر بيبرس حين تقابل مع الخليفة الجديد ، وعانقه ، وسار الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس وبصحبته السلطان الظاهر بيبرس حتى وصلا إلى قلعة الجبل (عام ٦٥٩ هـ ^(١)) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن دعى إلى عقد مجلسا عاما حضره قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والقضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بصحة نسب الخليفة الجديد ، وشهد في هذا الاجتماع العربان الذين حضروا من دمشق صحبة الخليفة الجديد بأن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر بذلك بعض القضاة والفقهاء ، وقبل قاضي

(١) ابن خلدون : المبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ ،

المقریزی : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٤٨ ،

Muir : The Caliphate, P 581.

القضاء هذه الشهادة^(١) . فقام السلطان الظاهر بيبرس وبايعه على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها ، وتبعه القضاة والعلماء ، ثم أخذت له البهجة بعد ذلك من سائر الناس ، كما نقشت السكة باسمه وأمر بالدعاء له في الخطبة ولقب بالمستنصر بالله ، وبذلك تم إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة^(٢) ، بعد أن ظل العالم الإسلامي بلا خليفة لمدة ثلاث سنوات ونصف^(٣) .

وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد حقق هدفه في إحياء الخلافة العباسية على نحو ما ذكرنا ، فإنه بقي أن يجنى ثمرة هذا الجهد وهو تقليد الخليفة العباسي له بحكم البلاد . وتم ذلك فعلا في الرابع من شعبان عام ٦٥٩ هـ عندما خرج جمع كبير ضم الخليفة والسلطان وقاضى القضاء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥ .

يبدو أن أبا الفدا شك في صحة نسب هذا فإشار إلى أنه في هذه السنة وقدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله ، (المختصر ج ٣ ص ٢١٢) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٥٤٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٥١ .

والتقصاة والامراء ، حيث أقيمت لهم خيمة كبيرة بالمطرية وصعد إلى المقبر صاحب ديوان الانشا فخر الدين بن لقمان وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله لسلطان الظاهر بيبرس ، كما خلع الخليفة المستنصر خلع السلطنة على السلطان الظاهر بيبرس وهي عبارة عن جبه بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها السلطان الظاهر بيبرس ، وإتجه الموكب الذي ضم السلطان ثم الخليفة بينما حمل شهاب الدين التقليد على رأسه فكان موكبا حافلا^(١) .

وإستمر الخليفة المستنصر بالله مقيما بالقاهرة فترة من الوقت حتى إستقر الأمر على ضرورة إرساله إلى بغداد لإحياء الخلافة العباسية بها ،

(١) الفلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٠ ص ١١٢ - ١١٦ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠١ .

يشير المقريزي إلى أنه من العادات التي سادت مصر ، أن السلطان من ملوك بني أيوب ومن قام بعدهم من ملوك الترك - أي المماليك - لا بد إذا استقر في سلطنة ديار مصر أن يلبس خلع السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها ركبا والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذي كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه وجميع الامراء ورجال المساكر مشاة بين يديه ، (الخطط ج ٢ ص ١٠٦ بولاق)

كما كانت من قبل^(١) وكان أن تجهز الخليفة للسير إلى بغداد وبصحبة عدد قليل من الفرسان^(٢) ، غير أن القطار لم يلبثوا أن تعقبوا خطواته وقتلوه عام ٨٦٠ / ١٢٦٢ م^(٣) .

وعندما علم الظاهر بيبرس بما حدث للخليفة المستنصر تأسف لقتله ، وأخذ في طلب أمير عباسي جديد ليحل محل الخليفة المقتول^(٤) .

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ .

يرى بعض الباحثين أن بيبرس خشي من بقاء الخليفة إلى جواره بالقاهرة ، مما يؤدي إلى التنافس الأهالي حول الخليفة مما يتعرض معه من منصب بيبرس للخطر لذلك فكر في إبعاده عن القاهرة . انظر :

Arnold : The Caliphate, P 581.

(٢) يشير المقرئ إلى أن الظاهر بيبرس كان سيرسل صحبة الخليفة عدد كبير من الجنود ، لكن أحد اصدقاء بيبرس نصحه بالألا يفعل ذلك « فإن الخليفة إذا إستقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر ، فخشي بيبرس عاقبة ذلك ، وعهد إلى تقليل عدد الجنود المصاحبين للخليفة أنظر : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ ،

المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ ،

Muir : The Caliphate, P 581.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٢١٣ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٢ .

وكان أن وصل إلى مصر عام ٨٦٦١ / ١٢٦٣م الأمير أبو العباس أحمد الذي سبق أن أشار السلطان المظفر قطز بضرورة إرساله إلى مصر ، فرحب به بيبرس ترحيبا كبيرا ، وبويع بالخلافة بعد إثبات نسيبه ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . وبذلك أعيدت الخلافة العباسية مرة أخرى بالقاهرة^(١) .

وبعد أن تمتبيعة الخليفة الجديد ، قلد الخليفة الحاكم بأمر الله السلطان الظاهر بيبرس حكم « البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وإقامة قسيمة في القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور^(٢) .

ويبدو أن الظاهر بيبرس لم يعد يرغب بعد ذلك في إرسال الخليفة إلى بغداد ، وفضل إقامته بالقلعة بالقاهرة « عند حريمه وخدمه وغلما نه^(٣) » ليكون تحت أنظاره باستمرار ، ولا يستطيع الخروج عن الحدود

(١) المقرئزي : السلوك - ١ ق ٢ ص ٤٧٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، - ١ ص ١٠٢ .

(٢) المقرئزي : الخطط - ٢ ص ٣٠٢ (طبعة بولاق) ، السلوك - ١ ق ٢

ص ٤٧٧ - ٤٧٩ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، - ٢ ص ٦١ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، - ٢ ص ١٠٤ .

سلطات الخليفة العباسي

أما سلطات هذا الخليفة الجديد فلم تتمد الأمور الدينية دون سواها (٢) خاصة ذكر إسمه في الخطبة على منابر مصر والبلاد القايمه لها، فيما عدا جامع السلطان بالقلمة فيذكر اسم السلطان فقط في الخطبة . كذلك كان ينقش لإسم الخليفة على السكة إلى جوار اسم السلطان ، ثم أسقط بعد ذلك اسم الخليفة من السكة وأبقى في الخطبة (٣) .

أما أهم أعماله فإنحصرت في تقليد السلطان الجديد سلطنته ، والقيام بزيارات لتهنئة الأمراء والأعيان والكتاب والقضاء ، وفي ذلك يقول المقرئ بنى عمدة مؤرخي مصر في العصر المملوكي « وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فأقيم في تلك السنة خليفة في مصر ، قدم إليها من بغداد لقب المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وسار يريد

(1) Demonalynes : Muslim Institutions, P 111.

(2) Arnold : The caliphate ,P 99 — 103.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ص ٢٦ ، ص ٦١ .

سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ١٥٥ .

بغداد فحاربته القتار وقتلوه قبل أن تتم له سنة منذ بويج بمصر . فصار من بعده ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ بل يتردد إلى أبواب الأمراء واعيان السككاتب والقضاء لتهنئتهم بالأعياد والشهور^(١) .

وكان يحدث في بعض الأحيان عندما يخشى السلطان من الخليفة أو يتسرب إليه الشك من ناحيته ، فإن السلطان لا يتردد في القبض على الخليفة وعزله وسجنه ، وتولية الخلافة لمن يشاء من أبناء البيت العباسي بمصر ، والذي تطمئن إليه خواطره^(٢) .

خلافة المستعين بالله

ومن الملاحظ عبر تاريخ الخلافة العباسية بمصر ، أنه لم يقول أى

(١) عن وظائف وسلطات الخليفة العباسي بمصر أنظر :

على إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣٨ — ٢٤٢ ،

Arnold : The Caliphate, P. 97 — 99,

Muir : The Caliphate, P. 593 — 595.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ص ٥٤١ ،

سميد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٥ .

خليفة عباسى بها أية سلطة سياسية أو حكم^(١)، سوى ما حدث فى عام ٨١٥م (١٤١٢م)، عندما « استقل الإمام المسلمون بالله خليفة المصر بأمر الخلافة: من الكتابة على اليهود ومناشير الإقطاعات والتقاليد والتواقيع والمسكيات وغيرها، وأفرد بالدعاء على المنابر وضرب اسمه على الدنانير والدرهم والطرز »، ومعنى ذلك أن الخليفة المسلمون تقلد حكم مصر بمفرده وأصبح فى يديه كل السلطات، مما يجعل ذلك الحدث حدثاً غير عادى فى تاريخ مصر زمن المماليك .

وهذا الحدث الغير عادى يجعلنا نتساءل: هل شخصية الخليفة المسلمون تختلف عن شخصية من سبقه من خلفاء، الأمر الذى جعله قادراً على تحقيق قدر أو نوع من السلطة لم يحققه من سبقه من خلفاء؟ ثم ماهى الظروف التى أحاطت بتولية المسلمون حكم مصر؟ وهل استقطاع المسلمون

(١) يشير القلقشندى إلى حال الخلافة العباسية بمصر فيقول: « أن الذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلحة السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقاعة الجبل المحروسة، ويستبد السلطان بما عدا ذلك: من الولاية والعزل وإقطاع الأقطاعات حتى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك، (صبح الأعشى، ٣ ص ٣٧٥) .

أن يكبح جماح أمراء الماليك في مصر والشام ويقبض على زمام الأمور
ويستقر في حكم البلاد ؟ .

في يوم الاثنين الرابع من شعبان عام ٨٠٨ (١٤٠٥ م) إستقدهى
السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠٦ - ٨١٥ / ١٣٩٨ - ١٤١٢ م)
سلطان الديار المصرية أبا الفضل العباس بن الخليفة المتوكل على الله أبى
عبد الله بن محمد « وبايعه بالخلافة بعد وفاة أبيه المذكور » فلقب
بالمستعين بالله^(١) ، وأبى العشريف ، وإستقر بداره^(٢) . وقد وصف
المستعين هذا بأنه كان « دينا فيسه خير وإحسان ولين ، حشما وقورا
مهابا^(٣) » .

ولم يكن متوقفا أن يمتع الخليفة المستعين بسلطات أكثر من
تلك التى كانت لأسلافه من قبل ، والتى تفررت منذ زمن السلطان الظاهر
بيبرس كما سبق أن أشرنا .

(١) تذكر بعض المصادر أنه تلقب بالمعتصم أنظر : ابن داود الصيرفى :
نزهة النفوس ، > ٢ ص ٢١٧ .

(٢) المقرئزى : السلوك > ٤ ق ١ ص ١٤ ،

أبو المحاسن : النجوم ١٣ > ص ٥١ .

(٣) ابن داود : نزهة النفوس > ٣ ص ٢٠٩ ،

المقرئزى : الخطط > ٢ ص ٢٤٢ .

غير أن حال الخليفة المسممين كان أصعب من حال من سبقه من الخلفاء ، وذلك لما وصف به السلطان فرج بن برقوق — سلطان الديار المصرية زمن خلافة المسممين — بأسوأ الأوصاف ، فيجمع المؤرخون على أنه كان « أشأم ملوك الإسلام ، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشام ^(١) » .

الفتن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج

وامتلاً حكم الناصر فرج بالاضطرابات الداخلية ^(٢) ، حيث خرج عايمه كثير من أمراءه ببلاد الشام ، وكذلك داخل مصر نفسها ، عندما إخفتى سبعين يوماً ، قضاها في لهو وطرب واكل وشرب وبسط وانسراح « في حين عهد الأمراء إلى أخيه المنصور عبد العزيز بأمر السلطنة وإجتمع حول عهد العزيز عدد كبير من المماليك والأمراء ، مما أدى إلى حدوث عدة اضطرابات وفتن عندما عاد الناصر فرج إلى السلطنة مرة أخرى ، وأخذ

(١) المقرئى : السلوك ، ح ٤ ق ١ ص ٣٢٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ١٣٥ ص ١٥١ ،

زيان : الأزمات الاقتصادية ص ٧٣ .

(٢) عن تدهور الأحوال الاقتصادية زمن الناصر فرج أنظر :

زيان : الأزمات الاقتصادية ص ٦٢ — ٧٥ .

بتمتقب أمراء ومماليك أخيه عبد العزيز بالقتل^(١).

غير أن الخطر الأكبر الذي تعرض له السلطان فرج بن برقوق جاء من جانب الأميرين « نوروز » نائب طرابلس^(٢) ، و « شيخ » نائب حلب ، اللذين خرجا على السلطان فرج وأخذا في إقطاع البلاد لأتباعهما وفي الاستيلاء على مختلف الحصون والقلاع ببلاد الشام^(٣).

وقد خشي السلطان الناصر فرج من أطماع كل من نوروز وشيخ ، لذلك قرر الخروج إلى بلاد الشام ومحاربةهما . فجهزهما سدا كره وحمل معه خزائنه وحرابه وخرج معه الخليفة المستمين بالله أبو الفضل المباسي والقضاة الأربعة ، ونزل بالريمانية في أواخر عام ٨٨٤ (١٤١٢ م) ومنها إتجه إلى غزة ، وبعد أن تجمع جيشه بغزة ، أخذ في السير صوب دمشق .

(١) ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس ، ص ٢٠٢ - ٢١٧ .

(٢) كان نوروز متزوجا من أخت السلطان الناصر فرج ، ونظرا للعناء والكراهية التي كانت في قلب الناصر فرج تجاه نوروز ، أمر أخته بالانفصال عن زوجها نوروز .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ ،

وما يذكر أن السلطان الناصر فرج كان كثير السكر ، شديد القهور ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من مماليك والده ، مما جعلهم يفرون منه ويلتجئون إلى عدويه نوروز وشيخ .

ولاتبه السلطان فرج إلى دمشق حيث كان نائبه بها الأمير تغرى بردى والد المؤرخ جمال الدين أبي المحاسن^(١) - واستشاره فيما يفعله ، فنهأ تغرى بردى عن القتال وأشار عليه بالعودة إلى القاهرة ، وبث الطمأنينة في قلوب عساكره ومماليكه الذين أصبحوا في خوف دائم ورعب شديد من السلطان فرج .

غير أن السلطان فرج لم يأخذ بهذا الرأي ورفض العودة إلى القاهرة إلا بعد إزلال الهزيمة بكل من نوروز وشيخ . ويبدو أن السلطان الناصر فرج كان واثقاً من قوته وتفوقه على نوروز وشيخ فقال عنهم تغرى بردى « والله ما صفتهم قدامى إلا كالصيد المجروح^(٢) » .

(١) كان السلطان الناصر فرج متزوجاً من خوند فاطمه ابنة تغرى بردى وأخت جمال الدين أبي المحاسن .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ص ١٣٨ (١٣٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ص ١٣٩ (١٣٩) .

وفي الجانب الآخر كان كل من نوروز وشيخ ، يخشيان من قوة جيش السلطان فرج ، لذلك حاولا عدم مواجهته وأخذا يتنقلان من مكان إلى آخر ، مما دفع السلطان فرج إلى تقيعهما بجيشه الكبير ، من بلد إلى آخر حتى وصلا إلى البعون^(١) ، فقبعهم الناصر فرج في يوم الاثنين ثالث عشر المحرم عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) « وهو سكران لا يعقل^(٢) » .

وقد بلغ التعب والإعياء بجيش الناصر فرج حداً لا يوصف ، مما دفع كثيراً من أمرائه إلى حثه على عدم الدخول في المعركة إلا بعد إستراحه قصيرة يستعيد فيها جيشه قوته السابقة ، غير أن السلطان فرج أصر على الإسراع في الدخول في المعركة قبل هروب نوروز وشيخ إلى مكان آخر .

ولم تـمض ساعات قليلة من بدء المعركة إلا ولحقت الهزيمة بجيش الناصر فرج على عكس ما كان يتوقع ، وقتل عدد كبير من كبار أمرائه ، في حين إتجه الناصر فرج بعد هزيمته إلى دمشق^(٣) .

-
- (١) بلد بالأردن ، بينه وبين طبريه عشرون ميلا ، وإلى الرملة اربعون ميلا . أنظر : ياقوت : معجم البلدان - ص ١٣ - ١٤ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم - ص ١٣ - ١٤٠ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم - ص ١٣ - ١٤٠ - ١٤١ .

وعدة عدة حقائق يجب الإشارة إليها كانت سبباً في إنزال الهزيمة
بجيش الناصر فرج :

أولاً : سوء معاملة الناصر فرج لأمرائه ومواليه ، الأمر الذي
أدى إلى انسحاب معظم هؤلاء الأمراء والمواليك من جيش الناصر فرج
وانضمامهم إلى جيش نوروز وشيخ .

ثانياً : عدم الأخذ بمشورة بعض الأمراء الموالين له ، تلك المشورة
التي كانت توصي بعدم الدخول في معارك ضد الأمراء الخارجيين عليه
والعودة إلى مصر ، وبث الطمأنينة في قلوب جنده وأمرائه حتى يعودوا إلى
ولائهم له .

ثالثاً : تسرع الناصر فرج في الدخول في المعركة قبل إستعادة جيشه
لقوته ، بعد التعب والإعياء الذي أصابه نتيجة السير المتواصل من
١٣ ذى الحجة عام ٨١٤ هـ منذ خروجه من الريدانية وحتى ١٣ محرم
عام ٨١٥ هـ عندما وصل إلى اللجون .

أما عن الجانب المنتصر وهو جانب نوروز وشيخ ، فقد وقع الخلاف
بينهما ، فأراد كل منهما أن يكون هو « الأمير الكبير » ، لذلك لم
يتفقا على من ستكون له الكلمة العليا . ويتضح لنا ذلك الخلاف عندما

أرادا كتابة رسالة إلى أمراء الديار المصرية ليعلموهم حقيقة الحال وهزيمة
الناصر فرج ، فرفض كل منهما أن يتنازل للآخر بأن يكتب بإسمه ، فأشار
عليهما كاتب السر فتح الله ^(١) - وكان بصحبة جيش الناصر الذي خرج
لمحاربة نوروز وبعد هزيمة الناصر فرج فضل الهتاء بجانب نوروز وشيخ -
بأن يكتب كل منهما رساله بإسمه ويرسلها إلى الأمراء بمصر ، بالإضافة
إلى أن يكتب الخليفة المستعين هو الآخر رسالة يشرح فيها ما أمسى عليه
الحال من هزيمة الناصر فرج . ومايذكر أن الأميرين نوروز وشيخ تحفظا
على الخليفة العباسي المستعين بالله وبعض القضاء ورفضاً السماح لهم بالتوجه
إلى دمشق والانضمام إلى جانب الناصر فرج ^(٢) .

أما الناصر فرج فقد أخذ في الاستعداد لمواصلة القتال « واستدعى
القضاء والأعيان ووعدهم بكل خير وحثهم على نصرته والقيام معه ،
فانقادوا له ، وأخذ في تدبير أموره ، وتلاحقت عساكره شيئاً بعد

(١) هو فتح الله بن معتصم بن نفيس الاسرائيلي الدوادى العناني التبريزي ،
رئيس الأطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز هام ٧٥٩ هـ ، ثم صحبه أباه إلى القاهرة ،
فتشابه في كفالة عمه ونظر في الطب ، وتولى رئاسته ثم تولى كتابة السرايا ٨٠١ هـ
في سلطنة الظاهر برقوق . (وعن تفاصيل حياة وشخصية فتح الله أنظر :

المقريزي : الخطط ٣ ص ٦٢ طبعة بولاق) .

(٢) السخاوي : الذيل على رفع الاصر ، ص ٩١ .

شيء» ، وزاد من قوة الناصر فرج في تلك الفترة إستيلاؤه على أموال
وعمالك الأمير تفرى بردى نائب دمشق بعد وفاته ، وقد أنفق الناصر
فرج هذه الأموال على كبل الجنود التي انضمت إليه خاصة التركان ،
ماقوى من شأنه . ولم يكف الناصر فرج بكل هذه الاستمدادات وإنما
أخذ يمارس بعض الأساليب الدبلوماسية ، فأشار على قاضى القضاة جلال
الدين الهلثينى وبقية قضاة مصر ودمشق الذين كانوا معه بدمشق ، وجماعة
من أرباب الدولة ، على المناداة بأن السلطان أمر بإبطال المكوس وإزالة
المظالم ، حتى يجذب إليه قلوب الشاميين ، وبالفعل جاءت هذه السياسة
بنقائجها الطيبة « فمظم ميل الشاميين إليه — أى إلى الناصر فرج —
وتمصبوا له ، وصاروا إليهم من حزبه ، وتغنوا على لسانه :

« أنا سلطان ابن سلطان وأنت يا شيخ أمير^(١) . »

وهنا كان على نوروز وشيخ أن يعملوا بسرعة خشية إجتماع كافة
الأمراء فى جانب الناصر فرج وتعاطفهم معه بصفته السلطان وابن أستاذهم
السلطان الظاهر برقوق ، فى حين أنهما كانا متفرقين كل يعتبر نفسه
الأمير الكبير .

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ص ١٣ - ١٤٢ - ١٤٤ .

تقليد الخليفة المستعين السلطنة

وعندما فشل نوروز وشيخ في الوصول إلى حل لإتخاذ موقفهما السيء، استدعيا كاتب السر فتح الله وسألاه المشورة فيما يعملان ، ويروي المقريري نقلهما ذكره له فتح الله كاتب السر ، أن فتح الله قال لهما : « ما هكذا يقاتل السلطان » وذكر لهما ما هم فيه من الفرقة ، وعدم الإلتئاد إلى واحد منهما وإن كلا منهما يرى أنه الأمير الكبير ، وهذا أمر لا بد فيه من إقامة واحد ترجع الأمور كلها إليه وتصدر عنه وأشار بأن « يقيموا الخليفة يتحدث ، وقوموا معه ، فإن أحداً لا يجاسر عليه » . فقبل كل من نوروز وشيخ هذه المشورة دون تردد^(١) .

وهنا نتوقف برهة لنناقش الأسباب التي دفعت فتح الله كاتب السر إلى التمسك في تقليد الخليفة العباسي أمور البلاد ، وللأسباب التي من أجلها قبل كل من نوروز وشيخ ولاية الخليفة العباسي لأمر البلاد دون تردد .

لقد أحسن فتح الله كاتب السر أن الأمور قاربت على الخروج من

(١) المقريري : الخطط ، ٢٠ ص ٦٢ ،

يد الأميرين نوروز وشيخ بعد إستعادة السلطان الناصر فرج لقوته ، خاصة وأن كلا من نوروز وشيخ مختلفان ، فرأى - ففتح الله - الاستعانة بالخليفة العباسي ، وذلك لما يتمم به الخليفة العباسي من تأثير على مختلف طوائف المجتمع بصفته خليفة المسلمين .

لذلك رأى ففتح الله أن يصدر الخليفة فتوى شرعية يعلن فيها خلع السلطان الناصر فرج من السلطة ويوضح في تلك الفتوى أن الناصر فرج خرج عن الدين ووقع في المحرمات ، وبذلك يضمن خروج كافة الأمراء والجنود على الناصر فرج والانقضاء من حوله نتيجة عدم شرعية حكمه ، وفي نفس الوقت يعلن على الملأ بأن الخليفة المستعين هو صاحب هذا الأمر وحاكم البلاد ، فلا يستطيع أحد الخروج عليه . وفي نفس الوقت يعيد الوثام بين كل من نوروز وشيخ ، بعدم تولية أحدهما فتارة تارة الآخر . وقد قبل كل من نوروز وشيخ هذا الحل ، وذلك حلاً مؤقتاً لما تار بينهما من خلاف حول أيهما سنبول إليه السلطنة^(١) ؟ واستراح الأثنان لهذا الحل ، حتى يستطيعا من وراء الخليفة أن يتمما هزيمة الناصر فرج ، ثم يستطيع

(١) أبو المحاسن : النجوم ، - ١٣ ص ١٩٣ .

القرى منهما أن يتخلص من الآخر ويقبض على زمام الأمور فيما بعد ،
خاصة وأن الخليفة كان لا يقيم بقوة عسكرية ضاربة - يستطيع بها منازلة
أحدهم إذا حاول أن يقصيه عن عرش البلاد .

إذن كانت ولاية الخليفة المستعين للبلاد ولاية مؤقتة ، أراد بها
الأمراء المتصارعون أن تكون وسيلة للتخلص نهائياً من السلطان الناصر
فرج المتحصن بدمشق ، ثم سقاراً يستطيع من ورائه أحد هؤلاء الأمراء
تدبير مؤامراته للانفراد بحكم البلاد .

وقد فهم الخليفة المستعين كل هذه الأمور فهماً كاملاً ، خاصة وأنه
نشأ وتربى بمصر وشاهد وسمع بالمؤامرت والدسائس التي قام بها الأمراء
الماليك للقبض على الأمور ، وعلم علم اليقين أنه من المستحيل أن يترك
هؤلاء الأمراء حكم مصر والشام يخرج من أيديهم إلى أيدي الخلفاء ،
وعلم أيضاً أن هذا الاجراء ما هو إلا حيلة للوصول إلى هدف معين هو في
النهاية الوصول إلى الحكم . لذلك رفض رفضاً قاطعاً ما عرضه عليه كاتب
السر فتح الله من تولية حكم البلاد . ولكنه أجبر على القبول حينما أوقعوه
في خلاف شديد مع السلطان الناصر فرج حتى يقطعوا عليه طريق الرجعة

ويجعلوه مضطرا لقبول ولاية البلاد وإصدار فتوى بخلع الناصر فرج^(١).

وقبل أن نمضى فى الحديث عن سياسة الخليفة المستعین سلطان الديار المصرية ، نشير إلى أن ولاية الخليفة المستعین بالله العباسى للبلاد لم تكن هى أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون بالقاهرة لقبول حكم مصر زمن المماليك .

فتشير المصادر التاريخية إلى أن وصول الخليفة المستعین إلى كرسى الحكم بالديار المصرية لم تكن هى أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون لشغل منصب السلطنة ، وإنما حدث زمن والده الخليفة المتوكل وبالتحديد عام ٨٧٧٨م (١٣٧٦م) بعد هزيمة السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤-٨٧٧٨ / ١٣٦٢ - ١٣٧٦م) بالعقبة وهروبه إلى جهة الديار المصرية أن اتفق الجميع « الأمراء وغيرهم وتوجهوا إلى الخليفة المتوكل على الله وكان أيضا فى صحبة السلطان الملك الأشرف وقالوا له : بأمر المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك » فامتنع الخليفة المتوكل عن قبول السلطنة^(٢).

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٥ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ١ ص ٣٥٨ .

Muir : The Mameluke, P 129.

=

(٢) ابن خلدون : العبر ، ٥ ص ٤٦٥ ،

وإذا كان الخليفة المتوكل رفض قبول السلطنة التي عرضت عليه عقب هزيمة الأشرف ، إلا أنه وبعد سلطنة الظاهر برقوق (عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) فسكر جدياً في الإطاحة بحكم برقوق وأن يتقلد هو حكم البلاد. فيحكي المؤرخون أنه في عام ٨٧٨٥ / ١٣٨٣م وصل إلى مسامع السلطان الظاهر برقوق أن الخليفة المتوكل على الله اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركمانى الممزول وإبراهيم العلانى ، وجمع جماعة من الاكراد والتركان وهم نحو من ثمانمائة فارس ، واتفقوا على الوثوب على السلطان برقوق عندما يقوم باللعب بالسكره وبتقلونه « ويمكنون الخليفة من الأمر والاستبداد بالملك (١) » . ولم يلبث أن استدعى السلطان الظاهر برقوق الخليفة الذى انسكر ما نسب إليه ، أما الأميران قرط وإبراهيم

== المقريزى : السلوك > ٣ ق ٩ ص ٢٨٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، > ١١ ص ٧٨ - ٧٩ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، > ٢ ص ١١٩ .

(١) يرى بعض الباحثين أن الضغط والتضييق الذى لقيه خلفاء العصر المملوكى الأول كان سبباً في محاولة خلفاء العصر المملوكى الثانى للوثوب والتأمر على سلاطين المماليك .

انظر : إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسه ص ٥٣ .

فقد اُعتُرفا بتفاصيل هذه الحادثة ، فموقب الجميع ، وتم سجن الخليفة بإحدى سجون القلعة^(١) .

وإذا كان الخليفة المتوكل قد أعيد بعد فترة إلى الخلافة ، وشهد وفاة برقوق (عام ٨٠١ / ١٣٩٨ م) ، وعرض عليه الأمراء ملك مصر بعد زوال دولة برقوق ، فإنه « تبرم من الدخول في الملك وأشار بإعادة حاجي خليفة^(٢) » . ويبدو أن المتوكل بعد هذه المدة الطويلة التي قضاها وراء كواليس الحسكم خلف السلاطين والأمراء وماشاهده من تكالب الأمراء على السلطنة والمؤامرات والدسائس التي يقومون بها من أجل الوصول إلى مصالحهم الخاصة ، وإيمانه القام بأنه لن يستطيع أحد الأفراد

(١) المقریزی : السلوك > ٣ ق ١ ص ٢٨٠ ،

أبو المحاسن : النجوم ، > ١١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ،

السيوطي : حسن المحاضرة > ٢ ص ٨٥ .

يشير ابن خلدون إلى سبب طريف أدى إلى فشل حركة الخليفة المتوكل فيقول : « أنه - أي الخليفة - داخل في ذلك بعض ضعاف العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له » .

(العبر > ٥ ص ٤٧٥) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، > ٢ ص ١١٥ .

أن يقوم بهام الحكم إلا إذا ساندته جند أقوياء من أمراء ومماليك . لذلك رفض قبول السلطنة والملك عندما عرضت عليه عقب زوال دولة برقوق كما سبق أن ذكرنا .

ويبدو أن الخليفة المستعين بن الخليفة المتوكل قد شعر بنفس شعور والده ، لذلك أصر على عدم قبول السلطنة عندما عرضت عليه كما سبق أن أشرنا ، لكنه أجبر على قبولها^(١) .

وبقبول الخليفة المستعين السلطنة « فرح الأمراء بذلك وابتسودوا بجمعهم ، وقبلوا يده ، وحلفوا له على الطاعة والوفاء بالإيمان المغلظة التي لا يمكن التوريط فيها » ووقف معظم الأمراء بين يدي الخليفة العباسي على مراتبهم يؤدون إليه الخدمة وقبلوا بين يديه الأرض كما كانوا يفعلون من قبل مع سلاطين المماليك^(٢) .

(1) Muir : The Mameluke. P 130 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم = ١٣ ص ١٨٧ - ١٩٠ ، من الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين عد المستعين من جملة السلاطين بالديار المصرية والبعض الآخر عدة من جملة الخلفاء .
أنظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ص ٣٥٧ .

وقد أتمرت السياسة التي اتبعتها كل من نوروز وشيخ في تنصيب الخليفة المستعين حاكما على البلاد والفتوى الشرعية بخلق السلطان الناصر فرج ، أتمرت هذه السياسة ثمارها ، فانقسم الأمراء والجنود للوالون للناصر فرج إلى قسمين :

(أ) قسم يرى أن مخالفة السلطان الناصر كفر ، لأن الناصر عزل عن السلطنة ، ومن قاتل معه فقد عصى الله ورسوله .

(ب) قسم آخر يرى أن القتال مع السلطان الناصر واجب وأنه باق في السلطنة ، ومن قاتله إنما هو باغ عليه وخارج عن طاعته (١) .

غير أن أنصار الفريق الأول كانوا أكثر بكثير من أنصار الفريق الثاني ، مما أدى إلى أن « أخذ أمر الملك الناصر في أدبار » ، وانحلت أهل دمشق عن الملك الناصر وخافوا عاقبة مخالفة أمير المؤمنين في الدنيا والآخرة . ويقرر جمال الدين أبو المحاسن وغيره من المؤرخين إلى أنه « لولا الخليفة ما انتظم لهم أمر - أي نوروز وشيخ - أعظم ميل التركان والعامّة للملك الناصر (٢) » .

(١) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٤٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، - ١٣ ص ١٤٨ ، ١٩٣ - ١٩٤ ،

العيشي : السيف المهدد ، ص ٢٥٩ .

ولكن حدث في تلك الأثناء أن وصلت جموع التركمان نبذة للسلطان
الناصر، مما قوى من شأنه، وأوقع في قلوب نوروز وشيخ وبقية الأمراء،
مما دفعهم إلى الاجتماع وإعادة تقرير ولاية الخليفة عليهم حتى يقنوا جميعاً
موقفاً واحداً من وراء هذا الخليفة، وتشجيعاً للخليفة وحسنه على الثبات
« حلفوا بأجمعهم يمينا مغلظاً لأمير المؤمنين بأنهم يلزمون طاعته، ويأتمرون
بأمره، وأنهم رضوا بأنه الحاكم عليهم، وأنه يسقيد بالأمور من غير
مراجعة أحد، وأنهم لا يسلطون أحداً غيره طول حياته » (١). ومن
القسم السابق يبدو لنا أن الخليفة بدأ يتراجع في موقفه نتيجة علمه اليقين
أن هؤلاء الأمراء لم يخفواوه كما كان عليهم إلا لفترة مؤقتة وحتى تهدأ
الأمور ثم يقومون بهزله وتنصيب الأمير القوى، لذلك أقسموا له بأنهم
« لا يسلطون أحداً غيره طول حياته » تطميناً له.

ولم يكن أمام الخليفة المستعين إلا طاعة هؤلاء الأمراء، ومن ثم قيل
هذه الوظيفة المؤقتة.

وأشار الأمراء على الخليفة المستعين بأن يكتب إلى أهل الديار المصرية
يخبرهم بخلع السلطان الناصر فرج وخروجه على الدين ويعلمهم بنياً توليته

(١) أبو المحاسن: النجوم، ج ١٣ ص ١٩٣،

عرش البلاد^(١) ، كما ضمن كتابه إزالة المكوس والمظالم من سائر
الأهال^(٢) ، كما أشاروا أيضا بأن يكتب الخليفة والقضاة محضراً يحكمون
بقتضاه بإراقة دم السلطان الناصر فرج لسكونه خارجاً عن الدين^(٣) .

ونتيجة عن ذلك أن انفصل عن السلطان الناصر فرج عدد كبير من
إمرائه واتباعه ، مما أدى إلى ضعف موقفه ، بينما اشهد نوروز وشيخ في
محاصرة دمشق ، الأمر الذي دفع السلطان الناصر إلى الالتجاء إلى قلعة
دمشق والتحصن بها ، فيما كان من نوروز وشيخ إلا أن شتدا الحصار على

(١) ذكر القلقشندي نص رسالة أرسلها أمراء الديار المصرية إلى الخليفة
المستعين بعد هزيمة الناصر فرج ، ردأ على رسالة الخليفة المستعين لهم . (أنظر نص
هذه الرسالة في كتاب صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٧٩ - ٣٨٠) .

(٢) وقد أصدر الخليفة المستعين قراراً بعزل جلال الدين البلقيني عن قضاء
الشافعية وذلك لأن البلقيني كان في صحبة الناصر فرج ومقيم معه بدمشق وقد أثار
البلقيني هذا العزل ، وبعد أن تصافى مع المؤيد شيخ عمل جاهداً على الإطاحة
بإخلافه المستعين . أنظر :

أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٩٢ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ١٩٣ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٦ .

قلعة دمشق ، وفي تلك الأثناء تسرب معظم جنود وأمراء الناصر فرج وانضموا إلى جانب الخليفة المستعين ونوروز وشيخ (١) . وأخيرا اضطر الناصر فرج إلى النزول من قلعة دمشق وتسليم نفسه إلى الأمير شيخ . فاجتمع الخليفة بالأمراء والفقهاء والعلماء المصريين والشاميين وقرروا جميعا بإقامة دم الملك الناصر فرج ، ونفذ حكم الإعدام في شخص الناصر فرج في ليلة السبت السادس عشر من صفر عام ٨١٥ هـ ، على الرغم من معارضة الأمير شيخ في قتل الناصر فرج (٢) .

وإذا كان الخوف من السلطان الناصر فرج هو الذي دفع كبار الأمراء ومن بينهم نوروز وشيخ إلى المناداة بسلطنة الخليفة المستعين ، فإن التخلص من السلطان الناصر على النحو السابق أزال ذلك الخوف ، ولكن الأمور لم تهدأ بعد ، إذ ظل الخلاف بين كل من نوروز وشيخ قائما ، فشكل منهما ما يريد أن ينقذه الفرصة للانقضاض على السلطنة « والناس يترقبون وقوع الفتنة » ، ونتيجة تخوف الأمراء من بعضهم البعض أبقى على وجود الخليفة

-
- (١) ساعد على ذلك الأمان الذي أصدره الخليفة المستعين لكل الموالين للناصر فرج وهو « من حضر إلى أمير المؤمنين خليفة سيد المرسلين فهو آمن » .
أنظر : السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .
- (٢) يبدو أن السبب الذي دفع شيخ في معارضة سفك دم الناصر فرج هو أنه أراد استغلاله فيما بعد لتحديد نوروز إذا حاول الأفراد بالحكم .

العباسى بالسلطنة واتفق كل من نوروز وشيخ على أن يسيرا إلى مصر
صحبة الخليفة المستعين بالله ويكونا في خدمته ، فيكون الأمير شيخ أميرا
كبيرا ويشغل وظيفة أتابك المسكر بالديار المصرية ، ويقولى نوروز رأس
نوبة الأمراء ، على أن يكون اقطاع كل منهما بالتساوى .

وأثناء وجود الخليفة بدمشق بعد التخلص من السلطان الفاصر فرج
كان نوروز وشيخ يجلسان إلى جواره ، فيجلس شيخ عن يمينه بينما يجلس
نوروز عن يساره .

وأخيرا اتفق الأميران السكيران — نوروز وشيخ — على أن يستقر
نوروز بالشام وفوض له الخليفة المستعين « كفالة الشام جميعه : دمشق
وحلب وطرابلس وحمص وصيد وغزه ، وجعل له أن يعين الأمريات
والأقطاعات لمن يريد ، وأن يولى نواب القلاع الشامية والسواحل وغيرها
لمن أراد من غير مراجعة في ذلك ، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقر به في
شئ من ذلك ليجهز اليه تشريفا » . وهكذا خرج حكم بلاد الشام عن يد
الخليفة « السلطان » المستعين ، وأصبح في يد نوروز . ولم يعد للخليفة أى
حق سوى تشريفه بمنح الخلع الشريفة والعقائد لمن يختاره ويقرة نوروز في
حكم مختلف بلاد وقرى الشام . في حين استقر الرأى على أن يقوجه الأمير
شيخ إلى مصر صحبة الخليفة ، ويكون أتابك المساكر بها (١) .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٢٠٠ - ٢٠١ ،

وهكذا اقتسم الأميران الكبيران حكم البلاد، فساكن الشام من نصيب نوروز في حين كانت مصر من نصيب شيخ، لكن إذا كان نوروز قد قنع ببلاد الشام، فإنه أخذ يمارس فيها سلطاته بدون منازع حيث لا يوجد بها سلطان ولا خليفة، أما بالنسبة للأمير شيخ، فإن الديار المصرية كانت هي مقر الحكم والسيادة، لذلك كان على شيخ أن يعمل إذا أراد أن يفرد هو الآخر بحكم الديار المصرية، أن يعمل على تفويض نفوذ الخليفة العباسي سلطان البلاد.

وأخذ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجنود في الاستعداد للعودة إلى الديار المصرية، وأرسل إلى أهل الديار المصرية يعلمهم بقرب وصوله، كما أصدر أمراً بإطلاق سراح الأمراء المسجونين بالاسكندرية.

وفي ظاهر الأمر بدا الخليفة وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة، إذ أخذت رسائله وكتبه تنخرج وفي مقدمتها هذه العبارة: من عبد الله ووليه الامام المستمين بالله، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفترض طاعته على الخلق أجمعين، أهن الله ببقائه الدين «^(١) كما ضربت

== ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ٣٥٨.

Muir: The Mameluke, p 130.

(١) المقرئى: السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١،

أبو المحاسن: النجوم ج ١٣ ص ٢٠١،

السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦.

السكة بإسمه وحده ، ودعى له بمفرده على المنابر ، كما كانت علامته سارية على التقليد والتوقيع والمسكاتيات (١) .

وفي يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥ هـ بدأ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجند في السير جنوباً تجاه مصر .

ومن الجدير بالذكر أن أهل الديار المصرية فرحوا فرحاً زائداً بتولية الخليفة المستعين حكم الديار المصرية ، ظننا منهم أنهم بذلك قد تخلصوا نهائياً من حكم المماليك بحرية كانوا أم جراكسة ، وخرجوا جميعاً لإستقبال الخليفة المستعين ، وتلقاه « الناس » بقطيا والصالحية وبلبيس » وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه » ، كما كتبت عدة قصائد في مدح المستعين والخلفاء منها (٢) :

(١) وهذا على العكس من حال وسلطات الخليفة المستعين قبل توليه السلطنة، إذ كان مفقود السلطة مثله مثل من سبقه من الخلفاء ليس له سوى العهد إلى السلطان بالحكم والدعاء له على المنابر قبل السلطان .

(أنظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٦٣) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٨٦ .

الملك أصبح ثابت الأساس
بالمستعين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم المصطفى
لحلها من بعد طول تناس

الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية

وبوصول الخليفة المستعين العباسي إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الآخر عام ٨١٥ هـ، تبدأ مرحلة ثانية من مراحل حكمه ، فإذا كانت الفترة الممتدة منذ ولايته الحكم أثناء محاربة الناصر فرج وحتى رحيله إلى الديار المصرية في يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥ هـ تمثل المرحلة الأولى من حكمه ، والتي حرص أمثائها كافة الأمراء على حفظ شخصيته وهيئته ، وحرصوا أيضا على عدم المساس به والتظاهر باحترامه والقيام بالخدمة بين يديه ، وإطاعة أوامره . ويمود ذلك كله إلى الظروف التي أحاطت بالأميرين الكبيرين نوروز وشيخ ، وصراعهما ضد السلطان الناصر فرج ، ثم تخوفهما من بعضهما البعض .

أما وبعد التخلص من الناصر فرج واتفاقهما على تقسيم البلاد فيما بينهم وأن يكون نوروز بالشام وشيخ بمصر ، بدأ الأمر يختلف في علاقتهما مع

الخليفة العباسي المستعين فقد أحس كلاهما أنه في غير حاجة للخليفة العباسي، وأخذ كل منهما يعمل لتوطيد نفوذه ومركزه. وإذا كان الأمير نوروز قد انفرد بحكم بلاد الشام وأصبح من حقه حكم بلاد الشام حكماً كاملاً لا يراجع الخليفة فيه إلا « بن يسقتر في شيء ليجهز - أي الخليفة إليه تشريفاً »، فإن الأمر اختلف بالنسبة لوضع الأمير شيخ بمصر الذي كان بجواره الخليفة. وكان على الأمير شيخ هو الآخر أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الانفراد بالحكم.

وبعد وصول الخليفة المستعين إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الثاني عام ٨١٥ هـ، شق الخليفة القاهرة وصعد إلى القلعة ونزل بالقصر « على عادة السلاطين » ويبدو أن الأمير شيخ كان يتوقع أن الخليفة لن يذهب إلى القصر وإنما سيوجه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسي. ومن ثم بدأ يحس بعدم ارتياح لتصرف الخليفة وبدأ يشك في أمره، ولذلك فكر في العمل بسرعة من أجل الحد من نفوذ الخليفة حتى لا يتولى شأنه ويمثل خطراً يهدد الأمير شيخ نفسه.

لذلك أمر الأمير شيخ كافة الأمراء وأرباب الدولة بالألا بصعدوا إلى الخليفة وإنما يترددوا على باب السلسلة حيث كان يقيم الأمير شيخ، وأبطل المواكب السلطانية التي كانت تقام عادة للسلاطين، وقبض على الأمراء

الذين شك في إخلاصهم له ، وأخذ في القضييق على الخليفة المستعين ومنعه من مباشرة مهامه في القولية والعزل ، ومارس على الخليفة نوعاً من الضغط من أجل تقليد جميع أمور البلاد المصرية ، وأخيراً وبعد أن خشي الخليفة المستعين من عائلة الأمير شيخ ، رضخ لكل مطالبة ، وفي الموكب الكبير الذي عقد بالقصر السلطاني وحضره الأمير شيخ وسائر الأمراء « خلع الخليفة على الأمير شيخ بإستقراره أتاكبك الفسائر بالديار المصرية ٥٠٠٠ وأنه يولى ويعزل من غير مراجعة » .

وبمقتضى هذا التقليد الذي منحه الخليفة للأمير شيخ ، خرج الحكم عن يد الخليفة إلى يد الأمير شيخ ، الذي أخذ يمارس سلطاته وتلقب بلقب « نظام الملك ^(١) » .

ولم يانم الأمير شيخ بما حصل عليه ، وإنما أقام الأمير جقمق الأرخون شادى دواداراً للخليفة ، وكان جقمق هذا تابعاً مخلصاً للأمير شيخ ، وبذلك ضمن شيخ عدم تصرف الخليفة في أى أمر إلا بعد علمه به عن طريق جقمق الدوادار ^(٢) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، > ٢ ص ٨٩ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٠٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، > ١٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وعلى هذا النحو قبض الأمير شيخ على كافة الأمور وصار للخليفة
على رأى جمال الدين أبى المحاسن « الإسم فى السلطنة لاغير ، وماعدا
ذلك متعلق بالأمير شيخ (١) » .

وإذا كان الأمير شيخ قد استطاع التغلب فى سهولة على الخليفة
العباسى ويستولى على كل السلطات ، فإن عدوه الأول كان مقيماً بالشام
وهو الأمير نوروز ، الذى أخذ يرقب تطورات الموقف فى مصر فى قلق
بالغ ، وقد اعتمد نوروز على أحد الأمراء الكبار المقيمين بمصر ، وهو
الأمير بكتمر جاق ، فى الحد من نفوذ الأمير شيخ ، وكان الأمير نفسه
يخشى من بكتمر جاق ، لكن حدث فى شهر جمادى الآخرة عام ٨١٥هـ أن
توفى الأمير بكتمر جاق ، مما أتاح الفرصة للأمير شيخ لتنفيذ بقية مخططة
فى الوصول إلى عرش البلاد .

(١) أبو المحاسن : النجوم ١٣ ص ٢٠٦ .

ويشير ابن إياس إلى أن الخليفة المستعين كان فى مدة سلطنته مع الاتابكي
شيخ فى غاية الضنك ليس له فى السلطنة غير مجرد الإسم فقط والأمر كله للاتابكي
شيخ (بدائع الزهور ١ ص ٣٥٨) .

خلع الخليفة المستعين من السلطنة

وبعد أقل من شهرين من وفاة الأمير بكتغر جلق جمع الأمير شيخ أمراء الديار المصرية وحدتهم في أمر السلطنة ، فوافقوا على سلطنته^(١) .
ومن طريق ما يذكر أنه وأثناء انمقاد الموكب على عادته بالأسطبل السلطاني عند الأمير شيخ ، اجتمع القضاة الأربعة ومعهم ففتح الله كاتب السر الذي قال لهم : « أن الأحوال ضائمه ولم يمهّد أهل نواحي مصر اسم خليفة ، ولا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سلطان على العادة^(٢) » .

فاستقر رأى الجميع على سلطنة الأمير شيخ و « خلع الخليفة المستعين بالله العباسي من السلطنة » في يوم الأثنين أول شعبان عام ٨١٥هـ^(٣) .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ١ ص ٣٥٨ .

(٢) يشير ابن إياس إلى أن المؤيد شيخ جمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة وكثر الفساد في البر والبحر واضطربت الأحوال وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركي له سطوة يجمع أهل الفساد وتنصاح الأحوال على يده . انظر : بدائع الزهور ، ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المقرئزي : الخطط ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،

ومن الجدير بالذكر أن فتح الله كاتب السمر هذا، كان هو صاحب فكرة سلطنة الخليفة المستعين^(١) ١١.

وعندما صعد الأمراء إلى الخليفة ليعلموه صورة الحال ويأخذوا موافقته على بومة السلطان شيخ الذي تلقب بالمؤيد، تردد كثيرا ثم وافق بشرط أن ينزل من القلعة ويستقر بداره، وكأنه خشي على نفسه من إغتيال شيخ له، غير أن شيخ استبقاه بالقلعة تحت يده^(٢)، إلى أن تسقط له الأمور، وحتى لا يشكل الخليفة المستعين له أي خطر^(٣).

ثم قرر السلطان المؤيد شيخ بعد ذلك خام الخليفة المستعين من الخلافة وولى مكانه أخاه داود الذي تلقب بالمعتضد^(٤).

= أبو المحاسن : النجوم > ١٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، > ٢ ص ٣ .

(١) المقرئزي : الخطط > ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،

العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٣١١ .

(٢) العيني : السيف المهند في سيره الملك المؤيد ، ص ٣١٤ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، > ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، > ٢ ص ٨٩ .

(٤) المقرئزي : السلوك > ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٢١ .

وجددير بالذكر أن الأمير نوروز بالشام لم يعترف بشرعية سلطنة المؤيد شيخ ، وإسقمم متمسكا بشرعية حكم الخليفة المسقمين ، وإسقمم بخطب له على المنابر بدمشق كما كانت العملة تسك باسمه ، وذلك نتيجة تخوفه الشديد من سطوة الأمير شيخ^(١) وأخذ نوروز بعد العدة لمحاربة شيخ ، غير أن نوروز لم يلبث أن قتل عام ٥٨١٧ (١٤١٤ م) دون أن يحقق شيئا مما أراد^(٢) .
ومن المفيد أن نذكر أنه لو تحقق انتصار الأمير نوروز على شيخ ، لما استبقى الخليفة العباسي في الحكم ، ولفعل به مثلما فعل المؤيد شيخ !!
وهكذا تنقهي تلك الصفحة من صفحات تاريخ الخلافة العباسية

== ومن الطريف أن الذي ساعد الأمير شيخ على عزل الخليفة المستعين من الخلافة هو القاضي جلال الدين البلقيني الذي رتب دعوى شرعية حكم بمقتضاها بخلع المستعين من الخلافة ، والواقع أن البلقيني إنما أراد الانتقام من الخليفة المستعين الذي سبق وأن عزله عن قضاء الشافعية عقب تولية الحكم عام ٥٨١٥ .
(انظر : حسن المحاضرة - ص ٢٠ ، ٨٦ ، ٨٩ - ٩٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور : ١٠ ص ٣٥٨) .

(١) المقرئزي : السلوك - ٤ ق ١ ص ٢٥٥ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٢٦ .

(٢) العيني : السيف المهند ص ٣١٣ ،

ابن إياس : بدائع الزهور - ٢ ص ٣ .

بالقاهرة في ظل حكم المماليك ، الذين اتخذوا من الخلافة والخليفة ستاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية في الوصول إلى مراكز الحكم والسلطان^(١) .
في حين أن الديار المصرية ذاتها استغادت كثيراً من وجود الخلافة الفيلسوفية بها ولا أدل على ذلك من تصريح السيوطي وهو أحد مؤرخي وعلماء مصر في العصر المملوكي بقوله : « واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعانت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحيط رجال الفضلاء ، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الايمان والكتاب^(٢) » .

(1) Demombyaes : Muslim Institutions, P 112 .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ص ٢٠ ص ٩٢ .

المصادر والمراجع

- إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة
القاهرة ١٩٦٠ .
- ابن أبي الفضائل : (المفضل ت ٦٧٢هـ) الذهبج السديد والذر القريد
فيما بعد تاريخ ابن العميد باريس ١٩٤٠ .
- ابن إياس : (أبو البركات محمد بن أحمد ت ٥٩٣٠هـ) بدائم
الزهور بولاق ١٨٨٦ .
- ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ) تاريخ ابن خلدون
أو العبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٩٧١ .
- ابن داود : (علي بن داود الصيرفي ت ٥٩٠٠هـ) نزهة النفوس
والأبدان القاهرة ١٩٧١ .
- ابن شاكر : (فخر الدين محمد أحمد السنكي ت ٧٦٤هـ) فوات
الوفيات القاهرة ١٩٥١ .
- ابن طباطبائي : (محمد بن علي ت ٧٠٩هـ) الفخوري في الآداب السلطانية
القاهرة ١٩٢٧ .

- أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل ٨٧٣٢) المختصر في أخبار البشر
القاهرة ١٣٢٥ هـ ،
- أبو الحسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ت ٨٨٧٤) النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة القاهرة ١٩٧٢ .
- أرنولد : Arnold(thomas): The Calipate
oxford, 1924
- ديومبينز : Demombynes (Maurice): Muslim Institutions,
London, 1968.
- زيان : الأزمات الاقتصادية والأويمة في مصر عصر سلاطين
المماليك القاهرة ١٩٧٦ .
- السخاوى : (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٨٩٠١) الذيل على
رفع الإصر القاهرة ١٩٦٦ .
- سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٢ .
- السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن ٨٩١١) حسن المحاضرة فى
تاريخ مصر والقاهرة القاهرة ١٣٨٧ هـ
- تاريخ الخلفاء دمشق ١٩٣٢ م
- على إبراهيم حسن : دراسات فى عصر المماليك البحرية
القاهرة ١٩٤٨ .
- العيني : (بدر الدين محمود ت ٨٥٥) السيف المهند فى سيرة
الملك المؤيد القاهرة ١٩٦٧

- القلقشندى : (أبو العباس أحمد ت ٨٢١ هـ) صبح الأعشى فى صناعة

الانشا طبعة دار الكتب المصرية

- المقرئى : (تقي الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ) السلوك لمعرفة

دول الملوك القاهرة ١٩٧٠

المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار

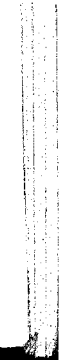
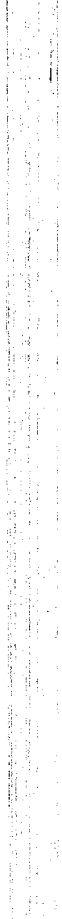
بولاق ١٢٧٠ هـ .

Muir (William) : The Caliphate its rise and fall : - ميور

oxford, 1891.

: (شهاب الدين أبى عبد الله ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان - ياقوت

بيروت ١٩٦٨ .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٩	سقوط الخلافة العباسية ببغداد
١٨	الظاهر بيبرس واهياء الخلافة العباسية بالقاهرة
٢٦	سلطات الخليفة العباسى
٢٧	خلافة المستعين بالله
٣٠	الفن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج
٣٧	تقليد الخليفة المستعين السلطنة
٥١	الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين
	سلطان الديار المصرية
٥٥	خلع الخليفة المستعين من السلطنة
٥٩	المصادر والمراجع



Arab League
Ligue Arabe

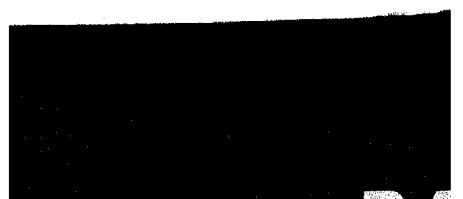
الجمعية العامة
الجمعية العامة
الجمعية العامة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٨ / ٢٥٩١ م

الترقيم الدولي ٤ - ٤١ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

منشأة دار نشر الثقافة
١١ شارع الامم المتحدة - القاهرة
٩١٦٠٧٦



2.02

غان
ص